الشعور *

يعنى الشعور فى علم النفس معرفة النفس لذاتها ، ويكاد أن يكون شرطًا جوهريًّا فى كل حالة نفسية ؛ وهو ـ لأنه ملازم لأغلب الظاهرات، ولأنه مألوف لدى كل إنسان ـ لم ينتبه إليه الأوائل لأنه ككل أمر بديهى يستدعى نضوجًا كبيرًا حتى يلتفت إلى دراسته .

والفلاسفة المعروفون بالطبيعيين لم يوجهوا أبحاثهم ناحيةَ الفكر ، وساروا فى سبيل دراسة الطبيعة الخارجية غير شاكّين فى مقدرة العقل ، ولا مطمئنين إليه اطمئنان العالم المحقق ، ثم أخذوا يتنبهون إلى النفس بدليل أنهم ميزوا بين الروح والمادة، وتكلموا عن عقل شامل لهذا الكون ؛ وهذا التصور للوجود ينبئ عن يقظة إلى الشعور بالنفس ومَلَكاتها . وتستبين هذه اليقظة بصورةٍ أوضح عند السوفسطائيين ، لأنهم آمنوا بوجود العقل الإنسانى وبحثوه من نواحى كثيرة ، بل جعلوه أساسًا للمعرفة ، فقالوا بنسبية العلم وبأنه يتوقف على العالم .

وتَوَّجَ سقراط هذا التطور نحو معرفة الشعور فقال : « اعرف نفسك بنفسك » ، وإنْ كان يريد من تلك المعرفة أن يهتدى إلى قواعد المنطق والأخلاق .

* المجلة الجديدة ، يونيو ١٩٣٥م .

وقد انتبه أفلاطون إلى ظاهرة الشعور ، ولكنه كان انتباهًا عارضًا فى أثناء دراسته للإحساسات المتناقضة ، فهو لم يطلق عليه اسماً خاصًّا ، ولم يُوقِفْ عليه محاورةً من محاوراته الفلسفية ، ولكنه اقترب كثيرًا من المعنى الحديث للشعور عندما مَيَّزَ بين نوعين من التأثرات : تأثرات تَفْنَى عند الأعضاء ، وأخرى تصل إلى النفس ؛ فالمعقول أن وجه التفرقة يقوم على أن الأولى لا نشعر بها وأن الأخرى نشعر بها .

وكذلك أرسطوطاليس لم يُسَمِّه ، ولم يُفرغ له موضوعًا خاصًّا ، ولكنه عنى بوصفه فى أثناء دراسته للعقل والحواس ؛ وما يُستخلَص من رأيه عنه أن الشعور ليس مَلَكَةً خاصةً مستقلةً عن الظاهرات ، بل هو غير منفصل عنها ؛ فالعين عندما تبصر تحس بأنها تبصر ، والعقل عندما يتصل بموضوع يشعر بأنه يفكر ، وهكذا .

والرواقيون هم الذين أطلقوا على الشعور اسمه المصطلح عليه فى الفلسفة والسيكلوجية ، وقد عَرَّفوه بأنه حاسة تُعرَف بها النفس ذاتها ؛ ولما كانت جميع الحقائق عندهم مادية فقد تصوروه كاللمس ، إلا أن موضوعه باطنى ، وأضافوا إليه وظيفة خطيرة فى المعرفة ، ذلك أن العلم هو عملية نفسية لهضم الأشياء التى تتصل بالعقل ، ونحن لا نستطيع أن نبلغ اليقين فيما نعلم من العلم إلا إذا وجهنا شعورنا نحو هذه العملية وتأكدنا من سلامتها ، فيقين الشعور أساسٌ لكل يقين عملىّ .

obeikandi.com

وتكاد أن تكون قيمة الشعور ثانوية فى صوفية الأفلاطونية الحديثة ، وهى تقرر أن النفس تعرف ذاتها ، وتفسر ذلك بأن النفس البشرية متصلة بالنفس الكونية والعقل الكونى لأنها فى الأصل هبطت منهما ، والعقل يعرف نفسه ، ومن هنا اكتسبت النفس البشرية منه هذه الصفة ؛ والشعور الذى يمكّن النفس من الإحساس بذاتها لا يسمو بها إلى معرفة الله ، مع أن الصلة بينهما غير منقطعة . . فلماذا ؟ ذلك أن النفس مكبلة بأغلال الجسم ، وأن الخيال يبعث بالشعور ، فلا سبيل إلى الله إلا بالتخلص من أوهام الشعور والحواس والجسم وممارسة الفضائل ، فمعرفة الله فناء فيه إذ ينعدم فيها الشعور .

وهذا تقديرٌ صوفىٌّ ولا شك ، لأن الصوفى لا يهنأ خاطره حتى يفنى فى الله وينسى نفسه من ضمن ما ينسى من الإحساسات والشهوات ، أما عند الفلاسفة فالشعور له قيمة أخرى ، لأنه الإحساس المباشر بالعالم النفسى ، وقد كان دعامة اليقين التى آوى إليها ديكارت بعد حيرة طويلة فى غمرات الشك ، لأنه بدأ فلسفته بالشك فى كل شىء داخل النفس أو خارجها ، ولكن مغالاته فى الشك أرغمته على اليقين فى حقيقة أولى ، وهى أنه يشك ، فلا سبيل إلى الشك فى أنه يشك ، ومعنى الشك أنه يفكر فهو إذن يفكر ، ولما كان لا بد للفكر من مفكر، فهو إذًا موجود ، فشعوره بالشك أو الفكر هو الذى هداه إلى اليقين ومَكَّنَهُ من إنشاء فلسفته ؛ ولم يكن يرى فى الشعور مَلَكَةً خاصةً تختص

بعمل خاص ، وإنما هو يلازم جميع العمليات النفسية ؛ وهذا ما يُفهم بداهةً من أن هنالك شعورًا بالفكر ، لأن الفكر عند ديكارت هو ماهية النفس ؛ فالإرادة والحس والعواطف من الفكر ، والذى يشعر بالفكر يشعر بجميع هؤلاء .

ومما يجب ذكره هنا أن ملبرانش ـ تلميذ ديكارت ـ لم يقدّر الشعور تقدير أستاذه ، لأنه كان يراه أقرب إلى العاطفة منه إلى المعرفة ، فهو يجعلنا نحس بالنفس ولا نعرفها معرفة واضحة ؛ وهو لا ينكر أن الشعور يقينى ، ولكنه غامض مع ذلك !

ولكن استرد الشعور مقامه فى الفلسفة على يد ليبنتز ، لأنه كان فى نهاية الأمر أساس فلسفته ، فإنه لما اقتنع بأن حقيقة الوجود تتلخص فى حقيقة الجواهر أو الذرات ، ووجد أن هذه الجواهر قُوًى ، وأن النفس أيضًا قوةٌ ؛ رجع إلى النفس يكشف فيها عن حقائق الذرات التى يتركب منها الوجود ؛ ومن هنا جاءت أهمية الشعور عنده ؛ ولم تكن مهمته مقصورة على معرفة ظاهرات النفس ، ولكنه يتعداها إلى معرفة الماهيات الكامنة فى الظاهرات .

وقد درس ليبنز حالة اللاشعور ، فقال إنه يوجد عدد لا متناه من الإحساسات التى لا نشعر بها ، إما لدقتها وتكاثرها بحيث يتعذر التمييز بينها ، وإما لاتحادها فلا ندركها فُرَادَى ؛ وهذا يفسر لنا عدم

الشعور الذى تحدثه العادة والألفة ، كما أن إليه يرجع السر فى الأذواق المختلفة والحالات النفسية الحزينة والسارة التى تَعْتَوِرُ الإنسانَ دون أن يستطيع لها تعليلاً .

وبقى دور الشعور خطيرًا عند لوك ، لأنه كان يعتقد أن التجربة أصلُ كل معرفة ، وأن منها الإحساس ، وهو الذى يحمل إلينا آثار العالم الخارجى ؛ ومنها التأمل الباطنى أو الشعور ، وهو يحمل إلينا آثار العالم الداخلى ؛ فجميع أفكارنا نتاج للإحساس والشعور ، ولكن يوجد من الأفكار ما هو مركب معقد كإنكار العلة والمدة ، وهذه لا يكفى الشعور فى تكوينها ، بل إن عمل الشعور هنا والإحساس أن يقدما الأفكار البسيطة التى تُرَكِّب منها النفس ما هو أعقد منها . فإذن . . الشعور لا يعرف الماهيات ، وهذا ما ذهب إليه فيلسوف آخر من فلاسفة المدرسة التجريبية الإنجليزية وهو دافيد هيوم ، فعنده أن الشعور لا يعرف إلا ظاهرات النفس ، وأما ما نسميه بالحقائق النفسية ـ كالعلة والجوهر ـ فهى أوهام يخلقها تداعى الأفكار والمعانى .

رأينا حتى الآن أن من الفلاسفة فريقًا يرون فى الشعور حاسةً لمعرفة حقيقة النفس وماهيتها ، وفريقًا يرون قدرته مقصورة على معرفة ظاهرات النفس ، وأنه لا يوجد فى داخليتنا إلا ظاهرات مطردة ، وجميع الماهيات أوهام ؛ وفلسفة كانط النقدية تحاول أن توفق بين هاتين الفلسفتين المتنافرتين ، فتقول إن الشعور لا يعرف النفس فى ذاتها ، بل يعرف

ظاهراتٍ فقط ، فالنفس حقيقة موجودة ولكننا لا نعرفها إلا كما تظهر لنا؛ فهو لا ينكر وجود الماهيات ، ولكنه لا يزعم أنه يستطيع معرفتها كما هى ؛ ولا ينكر الظاهرات ، ولكنه لا يقول بأنها كل ما يوجد .

ولكن كيف تبدو لنا الحقائق على غير ما هى عليه ؟ ذلك لأن الإحساسات التى تحمل لنا آثار العالم تترابط وتتحول إلى معرفة خلال قوانين العقل ، فالعقل يشترك فى تكييف الحقائق ؛ وإذًا فنحن لا ندركها فى النهاية كما هى ، وإنما كما تبدو قوانين العقل ؛ فالشعور يتأثر بالعقل لأنه لا يدرك حقائق النفس إلا بعد أن يصورها العقل بقوانينه .

على أنه يوجد نوعان من الشعور : تجريبى ، وهو يصاحب الظاهرات النفسية حتى قبل أن يؤثر فيهما العقل ؛ ونظرى ، ويصاحب العقل فى أثناء توحيده بين ظاهرات النفس والعالم الخارجى .

وقد التفت كانط كذلك إلى اللاشعور واعتقد أنه يشغل أغلب الحياة النفسية ، فالتلسكوب مثلاً يكشف لنا عن آلافٍ من الأجسام لا نحسها بالعين المجردة .

وقد وُجِدَ من أتباع المدرسة الأيقوسية مَن تصور الشعور تصورًا جديدًا ، فنحن إلى الآن لم نصادف من الفلاسفة مَن اعتبر الشعور مَلَكَةً متميزة تشاهد حياتنا الداخلية من غير أن تشترك فيها ، أما ريد الأيقوسى فيقول إننا نعرف أفكارنا وجميع عمليات عقلنا بمَلَكَةٍ نسميها

الشعور . والشعور يعرف الظاهرات لا النفس فى ماهيتها ، وقد رد على قول هيوم إنه لا يوجد أغمض من أفكار القوة والعلة إلخ ، قائلاً إلى تفهّم ضرورة كنتيجة لشعورنا بأنفسنا ، فإننا نشعر بالعمليات النفسية التى توحى بأفكار القوة وغيرها .

ولكن يوجد من الفلاسفة الأيقوسيين من يخالف ريد فى تكيفه هذا للشعور ، وهو هملتن ؛ فعنده أن الشعور ليس مَلَكَةً متميزة ، وهو لا يتميز عن الحالات التى يشعر بها ، وقد عرّفه بأنه حالة شاملة تنطبق على جميع العمليات النفسية التى تزيد على درجة من القوة ؛ ومن ملاحظات هملتن أن الشعور لا يمكن أن يقتصر ميدانه على الحالات النفسية الخالصة ، ذلك لأن الشعور يمتد امتداد مَلَكَات النفس . فعندما تجسّ العالم الخارجى بملكات ، أو تعرف حقيقةً من حقائقه نشعر بها أيضًا ، فشعورنا يشع على العالم الخارجى كذلك .

وقد سلم هملتن بوجود اللاشعور ، واستدل عليه بأدلة ، منها : أن أغنى ما فى عقلنا ـ كالعلوم واللغات ـ يبقى عادةً بعيدًا عن محيط الشعور، وأنه فى بعض الحالات المرضية يهذى المريض بما يظن أنه لا علم له به . وكذلك ففى ترابط المعانى توجد وسائط موصِّلة غير مشعور بها ، يستدعى وضوحُها تمعنًا طويلاً .

فلما كان عهد المدرسة التجريبية الحديثة التى يمثلها ستيوارت ميل

وبين وسبنسر ، والتى هى فى الواقع امتداد للمدرسة التجريبية القديمة التى أنشأها لوك وهيوم . . أقول : لما كان عهد هذه المدرسة ، نُظِرَ إلى الشعور نظرةً جديدة فيها أثر كبير من نظرية داروين العلمية فى التطور ، فانتبهوا إلى أن الشعور الحديث لا يمكن أن يكون صورةً طبق الأصل من الشعور القديم ؛ وتنبهوا كذلك إلى أوهام الشعور ، فهو مثلاً يعرفنا بظاهراتٍ نفسية ، ويجعلنا نعتقد أنها بسيطة ، وفى الحق هى معقدة ، ويمكن أن نحللها إلى عناصر كثيرة مختلفة تكونت ببطء على مَرِّ السنين ، وخضعت لقوانين التطور .

والشعور عند هذه المدرسة لا يدرِك إلا الظاهرات ، وهذا محقِّق لغرض السيكلوجية العلمية التى لا ترغب فى أكثر من أن تربط الظاهرات بقوانين وتعرف أحوال تداعيها .

وقد أنكر ميل وجود لا شعور سيكلوجى . وقال عن المؤثـرات التى لا نحس بها إنها فسيولوجية ، بمعنى أنها مؤثرات لم تصل قوتها إلى المراكز العصبية فلا يلتقطها الإحساس ؛ فالغائب عن الوعى هنا ليس أمرًا نفسيًّا ، ولكنه عصبى .

وبين الشعور عند سبنسر يقتضى الحركة ويستلزم التغير ؛ فوجود حالة نفسية لا يُحدث الشعور بها ، ولكن يُوجَدُ الشعور إذا وُجِدَ تنقّلٌ من حالة إلى أخرى .

والذى يهم قوله هنا ، أن الأفكار توجهت بشدة نحو ظاهرة اللاشعور ، ووصفت ظاهراته العجيبة وصفًا مسهبًا حتى تَغَالَى البعض ـ مثل مودسلى ـ وقالوا إن الشعور نفسه أمر ثانوى .

فإذا عرجنا إلى العصر الحديث ، وجدنا ثلاث نظريات عن الشعور لثلاثة من كبار مفكريه ، وهم : وليم جيمس وبرجسون وهملن .

وطريقة جيمس التفكيرية أن يسير من المُرَكَّب إلى البسيط ، فهو يحاول أن يعرف الحالات النفسية على أساس معرفته بالنفس ، لا أن يعرف النفس من مقارنة الحالات النفسية وفحصها عقليًّا .

والشعور هو أول ظاهرات السيكلوجية ، وتتصل به كل حالة نفسية؛ ولكن الشعور لا يوجد خارج الحالات المختلفة ولا توجد الحالات منفصلة عنه ؛ الشعور عمود الحالات النفسية الفقرى ، وهو الذى يُوَحِّد بينها ويكوّن منها كلاًّ لا يتجزأ ؛ وهو مع ذلك فردى ، أى مستقل فى فردٍ عنه فى بقية الأفراد .

والحالات النفسية تتجدد وتتغير دائمًا ، بحيث إذا عاودتنا حالة مرتين، فلابد من تغير فى المرة الثانية يجعل ذاتها مختلفة عما كانت عليه فى أول مرة . والشعور مستمر كالتيار الجارى ؛ وليس مجرى الشعور متشابه السطح ، ففيه حالة يتوقف الفكر فيها عن الحركة ، وأخرى يسبح فيها الفكر .

وليس ثمة شك فى أن الحالة الأولى من السهل ملاحظتها ووصفها ، ولهذا وَجَّهَ إليها جُلَّ عنايته ، ولكن ينبغى ألا نهمل الحالة الثانية . . حالة الحركة .

والشعور يدرك الحالتين معًا ، أى أنه يدرك ظاهرات النفس وعلاقاتها التى تربطها بعضها إلى بعض ؛ ومعنى هذا أن الشعور تركيبى لا ينسى المجموع أثناء تحليله للأجزاء ، وأنه يحتفظ باستمراره واتصاله رغم تقطعه الظاهر .

والشعور لا يقف موقف الحياد من الحالات النفسية المختلفة ، ولكنه يميل إلى البعض ويهمل البعض الآخر ؛ والحالات التى يتجه إليها الشعور يقال إنها فى البؤرة ، بينما التى ينصرف عنها تكون فى الحاشية ، وجميع الحالات تدور بين البؤرة والحاشية تبعًا للظروف النفسية ؛ وهذا ما يُحدث التيار ، ويفسِّر غلبة بعض الحالات على غيرها بالاهتمام العملى فى حياة الفرد .

وقد اتبع برجسون نفس المنهج ، ولاحظ أول ما لاحظ أن الشعور ليس مقصورًا على الحاضر لأنه حِفْظٌ للماضى فى الحاضر وتقدير للمستقبل ، والذى ندركه حقًّا هو قَدْرٌ من الزمن النفسى يضم ماضينا المباشر ومستقبلنا القريب ، وبمعنى آخر : الشعور قنطرة بين الماضى والمستقبل .

ولكن . . ما فائدة هذه القنطرة ؟

تجيب فلسفة برجسون على هذا السؤال بالآتى : يظهر الشعور بظهور الحياة ويلازمها ملازمة الظل ، لأنه أساس العمل ، وبيده تدبير الأمور والبت فيها ، ويقدر على ذلك قدرة تامة لحفظه للماضى وتقديره للمستقبل ؛ ولهذا كله فهو يقوى وينتبه حين يقبل الحى على حالة تتطلب التدبير والاختيار بين حلول كثيرة ، ويضعف حيث يستغنى عن الاختيار ويقترب الفعل من العادة أو الآلية ؛ ولما كان الاختيار مرادفًا للحرية ، فعمل الشعور يقوم على الحرية ، وبذلك يحكم الشعور الحرية فى المادة . وعليه فصفات وظيفة الشعور هى ذاكرة وتقدير للمستقبل واختيار وحرية .

ولكن . . ما طبيعة الشعور ؟

عن هذا السؤال يجيب برجسون إجابةً صوفيةً سامية ، وإن لم تُرْضِ نزعات العلم التجريبية ، فهو يقول مثلاً إن الشعور لا يمكن أن يتحلل إلى حالات متميزة ، منفصلة ، مستقلة ؛ الشعور وحدة متصلة كالنغمة الموسيقية (تَصَوَّرْ نغمةً موسيقية . . تشعر بنفسها . . وتخلق نفسها)، هذا هو الشعور كما يجب أن نفهم .

ونحن نعبر عن طبيعة الشعور باللغة وبالتحليل العقلى ، وكل هذا يفسد طبيعته ويعرّفنا بشىء سواها : الشعور وحدة من حيث الصورة ،

أما من حيث الجوهر فهو صفة خالصة ، أى أنه ليس كَمًّا . وفى هذا رد على الذين يزعمون أنهم يقيسون الظاهرات الشعورية كأنها ظاهرات مادية ، وهو يُرجع هذا التصور إلى ما تظنه الأذهان العامية من أن العاطفة الأقوى أكبر كميةً من غيرها .

وهذا نقد لطريقة التأمل الباطنى ، ومحاولة لإقامة السيكلوجية على أسس جديدة بعد تطهير العقل من الأوهام العامية وإعارات السيكلوجية الطبيعية .

أما هملن فلا يميز الشعور عن الفكر ؛ ولمّا كان الفكر عنده يشمل حقيقة الوجود ، فلا شىء يخرج عن ميدان الشعور ، سواء كان من ذات الإنسان أم من الوجود الخارجى . ولم يكن يرى فى النفس جزءين ، واحد يشعر والآخر يكون موضوعًا له ، فهما عنده شىء واحد يشعر بذاته . ولكن إذا قلنا إن جميع الظاهرات هى ظاهرات شعورية ، فما السبيل إلى تمييز الظاهرات النفسية عن غيرها من الظاهرات ؟

إننا إذا قلنا إنها غير ممتدة أو لا تقع تحت حس فإننا نعرفها تعريفًا سلبيًّا ، والحق أن أهم ما يميزها أنها ذاتية ، أى أننا نحس إحساسًا قويًّا أننا العامل الفعال فى وجودها وتكييفها .

وهو ـ كبرجسون ـ يرى للشعور وظيفة هى الاختيار ، وإذًا فهو مثله أيضًا يرى أن الحرية شرط أساسى فى وجوده .

وقد صار الآن للاشعور نظرياتٌ أيضًا كما للشعور ، وتوجد طريقتان لتصوره :

واحدة تعتبره حالةً من الشعور ، والأخرى تراه شعورًا ثانيًا مستقلاً أو نفسًا أخرى قائمةً بذاتها . وهو فى الحالة الأولى ظاهرةٌ من الظاهرات النفسية ، وأما فى الحالة الثانية فهو كائن . هو حى آخر فى الإنسان . ونستطيع أن نضرب مثالاً على الحالة الأولى بالكتابة الآلية التى يكب فيها الإنسان على كتابة ما يُملَى عليه مثلاً وهو غير دارٍ بما يفعل ، والحالة الأخرى مَثَلُها « الوسيط » الذى يأتى بالعجب أثناء التنويم المغناطيسى ، أو ما يسمونه بتحضير الأرواح . والنظريات التى تقول بأن اللاشعور شخصية خفية هى التى تقرر حقيقة تكاثر الشخصيات . ومن أصحاب هذا الرأى فرويد ، فيرى فى الغريزة الجنسية شخصية تعيش فى باطن الإنسان ، وهى دائمة الصراع مع شخصية أخرى هى الشخصية الاجتماعية ، فإذا غلبت على أمرها فى الحياة الواقعة انطلقت حرة فى الأحلام .

والنظريات القائلة بأن اللاشعور ظاهرةٌ تختلف ، فمنها ما يعتقد بأن جميع الظاهرات النفسية عُرْضَةٌ لأن تنغمر تحت سطح اللاشعور ، يستوى فى ذلك منها السامى الذى يتصل بالفكر ، والمنحط الذى يسفل للحس والشهوات ؛ فتوجد أحيانًا آلية فى التفكير كما توجد آلية فى الأفعال ، ويوجد لاشعور فى المَلَكَات العليا كالاختراع والإلهام والعبقرية ، بل إن التركيب ـ وهو العمل العقلى الجوهرى ـ لاشعورى .

ومنها ما تقصر ميدان اللاشعور على الإحساس وتنفيه عن الفكر ؛ فالأستاذ ريبو يقول إنه إذا كان يوجد اللاشعور ، ففى حالة النزوع السابقة للشعور .

ونختم الموضوع بأن نلخص نظريات الشعور فيما يأتى :

١ ـ نظرية بعض الأيقوسيين التى ترى فى الشعور مَلَكَةً متميزة عن بقية الظاهرات النفسية ؛ وليس لها قيمة الآن .

٢ ـ المذهب التجريبى ؛ وكان يحاول أن يجعل من السيكلوجية علماً لدراسة الظاهرات النفسية فقط ، وعنده أن الشعور صفة تلحق بالظاهرات الفسيولوجية إذا بلغت حدًّا من القوة .

٣ ـ نظرية مذهب كانط النقدى ؛ ويرى أن الشعور لا يكشف لنا عن ماهية نفسنا ، ولكنه يعرضها كما تبدو لنا .

٤ ـ والنظرية الرُّوحية ؛ وهى تؤمن بأن الشعور ينفذ إلى الماهية والحق والمطلق ، وجعلت من السيكلوجية ميتافيزيقا .